

الكهف

حانت مني التفاتة إلى المرأة.. بدا شكلي غير مألوف.. اللحية طالت بغير تشذيب.. لم أطلقها عمداً، ولكنني لم أفعل شيئاً لتجميلها.
في جانب المرأة صورة لعبدالمعطي وهو يعد الطعام.. منذ أن تولى مسؤولية إعاشتنا وهو لا يقدم لنا سوى النشويات، في بلادنا لم نكن نحرم من اللحوم.. أصبحت أعتقد أن عبدالمعطي يوفر بعض الدراهم من وجباتنا.. فليكن.. ماذا يضيرنا طالما أن تكلفة الوجبات في حدود المعقول.

بقلم: خالد السروجي
مصر

المعقول!!! ما المعقول؟.. وغير المعقول ما هو؟!
السيد الورداني يرى أن المعقول هو غير المعقول!!

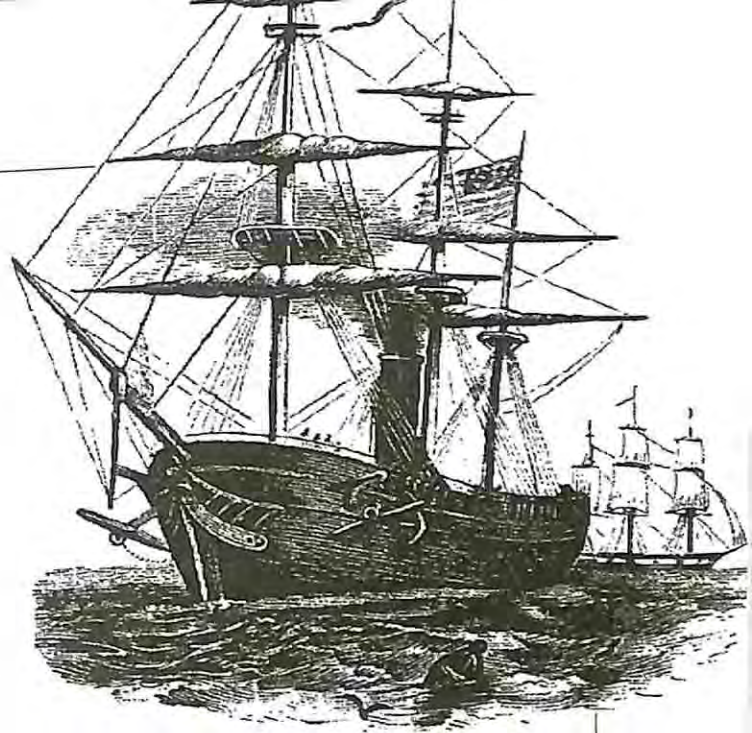
يقول عبدالمعطي:

- من غير المعقول أن تتركز إعارتنا في السودان واليمن.. وغيرنا ينعم بالسعودية والكويت.
- بل هذا هو عين المعقول.. فلسنا محاسيب أحد.
قام السيد الورداني ليطمئن على ذخيرتنا من السكر والشاي قبل أن يستقر في جلبابه، ثم عاد يتمتم بكلمات غير مفهومة عن الزمن الرديء.
قال عبدالمعطي وكان قريباً منه:
- قلت لكم إننا سنحتاج يوماً إلى القات لننسى همومنا.. ضحكنا بمرارة...

في خلفية المرأة يظهر الشيخ سالم ممدداً على الفراش وفي يده المصحف، ارتفع صوته الرتيب وهو يرتل:

- «فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا...»
سالم يستنكر دائماً حوارنا.. ولكنه لا يسعى عادة لإيقافه.

- وهل من المعقول أن تسقط جبهتنا في انتخابات النقابة؟



- كم سأعيش؟

هز رأسه.. وانتهت الجلسة بعد أن وصف لي بعض الأدوية ومنوماً وضرب لي موعداً في عيادته...
آه، ليتني لم أرك يا دكتور، إنك مثلي بين الأسوار، والأسوار بين جوانحك، ولن يجدي طبيب مريض لمريض!!

الأسوار بداخلي تتزلزل، تتصدع، تتهاوى بعض لبناتها.. أدت شريطاً مسجلاً بصوت أمي:
«الحمد لله رب العالمين».

وبكيت، إنني أنطق الحاء هاء، لسانني أثقل من صخرة... سأهدم اللبنة الأولى من السور، حاولت وحاولت، ولم أمل المحاولة، وأخيراً نطقت:
«الحمد لله رب العالمين».

خرجت من أعماقي كنيسة خضراء يانعة، تمد جذورها تحت الأسوار، وتتصدع اللبنة، وتتهاوى.. أتابع القراءة، الكلمات تفك لسانني من قيوده، يتردد صداها مع دقات قلبي... أقف بجانب أمي، نصلي الصبح، أركع، أسجد.. يا لسعادة قلبي في واحة وارفة الظلال، أعياء اللهاث وراء السراب في بيداء الحياة، نطيل السجود، أنفاسي تخترق الأسوار المتصدعة، تعانق نسيم الفجر! الباخرة تقترب... عذراً يا طنجة إن قبعت بين الأسوار.

ولم تطأ قدمي أي مسجد من مساجدك، أو قسبة من قصباتك... تتباطأ الباخرة... ستسألني نظرات أمي بصمتها المعهود، عن عودتي، أقول لها إنني لم أستطع العيش هناك بين الأسوار، والغربة، وبين أن أختار بين حجابي والمنحة أو أقول لها إن الحنين إلى الأذان قد مزق قلبي؟! أو أقول لها كل هذه الأشياء مجتمعة وأجهشت بالبكاء، وترسو الباخرة بميناء طنجة... ارتميت بين أحضان أمي وأبي.. ضمنتني أمي بحرارة والدمع يخفقها:
- كم افتقدناك يا صغيرتي وأنت بيننا، وكم افتقدناك أكثر وأنت هناك!.

- معقول جدا

- وتنجح جبهة «الرساوي»؟

- بل هو عين المعقول.. فالتناس تختار اللصوص لأن غيرهم عاجزون عن العمل.. من يستطيع أن ينفذ مشروع الإسكان.. نحن أم هم؟!

- هذه المسائل تحتاج إلى الشرفاء!!

- وهل يمكن للشرفاء أن يتعاملوا مع واضح اليد والمقاول وبعض موظفي الأملاك الأميرية.. هؤلاء جميعا لهم لغة لا يفهمها إلا اللصوص.. والفهلوية.

ارتفع صوت ترتيل الشيخ سالم:

- «إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تغلحوا إذا أبدا»

عاد السيد الورداني إلى وجومه السابق.. وجهه تقلص وبدا كأنه ينزف من داخله ألما.

قال كأنه يخاطب الحائط:

- فرضت علينا الهزيمة.. وضعت أمامنا السدود.

قلت:

وسلّط علينا المخربون.

التفت إلي الورداني، كأنه اكتشف وجودي لأول

مرة:

- أصبح الأمل تهمة وعاراً.. والاستسلام حكمة وديناً.

- كلما دعونا إلى إنقاذ السفينة قالوا: سلطويون...

وإذا دعونا إلى تدمير الذات لقالوا تحرر.

- الحكمة تتداولها السنة اللصوص.. والرحمة

تنساب من بين أيدي القتلة..

- والشرفاء ينكر بعضهم بعضاً.

- والبسطاء ضائعون. يسيرون في دروب

مهلكة كأنما يساقون إلى مذبحه.

هلل عبدالمعطي ليقطع الحديث، وقد فرغ لتوه

من إعداد الطعام:

- قوموا إلى طعامكم.. قبل أن نصل إلى حديث المخطط الدولي والقوى المعادية واتجه بحديثه الساخر إلى السيد الورداني وهو يقلد طريقته في الكلام:

- القوى الكبرى لها مجالها المغناطيسي.. انتبهوا أيها السادة.. لها مجالها المغناطيسي.. والدول الصغرى تدخل هذا المجال ولا تستطيع الإفلات.

قال السيد الورداني بتحد وشموخ:

- والأفراد أيضا يظنون أنهم أحرار.. ولكنهم أيضاً داخل المجال المغناطيسي.. تفرض عليهم الظروف وتتأثر سلوكياتهم وتفرض عليهم قيم وتقاليد جديدة.

ارتفع ترتيل الشيخ سالم:

- «ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً».

قبل أن نفرغ من طعامنا، قال السيد الورداني كأنما يرد على الشيخ سالم:

- نعم للإيمان.. فالدين له مجاله المغناطيسي على إخراجنا من مجالات القهر.. ولكن...

- ولكن ماذا يا رجل.. أستغفر الله العظيم.

- ولكنهم لم يغفلوا عن ذلك.. فهم لا يريدون له أن يفعل ذلك.

غضب الشيخ سالم قائلاً:

- لا تعد لهذا الحديث مرة أخرى.

قال عبدالمعطي بمرح:

- ولا تقلقوا.. سوف تعيدكم البطاطس إلى حالة السكون.

وكان على حق في ذلك. فقد بدأ

الخمول يغزو عقولنا.

حانت مني التفاتة إلى المرأة..

لازال وجهي غريباً غير مألوف.. لم

أشعر نحوه بصداقة، ولكنني

أيضاً لم أشعر بعداء.. كانت

عيني أشبه بعيون المغارة..

في نظراتي شيء غائر..

يشدني إلى أسفل.. إلى داخل

الكهف.. حيث تنعدم

الحركة... ويتجمد الزمن.